نور الشام



دورية صادرة عن هيئة الشام الإسلامية
جمادى الأولى ١٤٣٥هـ الموافق مارس/آذار 2014 م

/islamicsham

العدد ١٨
السنة الثالثة



في هذا العدد:

نور الشام ترحب بمشاركاتكم وتزداد ثراءً بأقلامكم.... للتواصل مع إدارة التحرير وإرسال مشاركاتكم
contact@islamicsham.org

افتتاحية العدد:

مرَّت الثورة السورية خلال الأشهر الماضية ببعض الصعوبات والإخفاقات على عدة مستويات، مما أدخل في بعض النفوس شيئًا من اليأس والقنوط.

وما إن توالت الإنجازات والانتصارات خلال الأسابيع الماضية حتى عادت روح التفاؤل والأمل إلى النفوس..

فينبغي والحالة هذه إعادة التأكيد على أنَّ الصراع بين الحق والباطل تحكمه سنن كونية لا تتخلف ولا تتبدل، قد تغيب أحيانًا عن الأذهان بسبب الانغماس في تفاصيل الحياة اليومية، وأحداث هذا الصراع، ومن هذه السنن التي لا بد من فهمها؛ لنحسن التعامل معها:

١- الابتلاء بالمصائب للمجاهدين والعاملين في سبيل الله في الأموال والأنفس سنة مستمرة، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

٢- ولهذا الابتلاء حكم كثيرة، من أهمها التمحيص وتمايز الصفوف، فهو ليس شرًا محضًا مهما كان فيه من آلام، قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤-١٤١).

٣- لكن هذا الابتلاء للمسلمين يقابله ابتلاء آخر لأعدائهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤).

٤- وهذه المداولة بين الحق والباطل مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

٥- مع الثقة التامة أنَّ عاقبة هذا الصراع والتدافع للمؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

٦- لكن حتى يتحقق هذا النصر لا بد من الأخذ بأسباب النصر:

- كعدم التفرق والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦).

- والأخذ بأسباب الإعداد والقوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٨).

- وكتمان التخطيط والتنفيذ، قال ﷺ: «اسْتَعِينُوا عَلَى إِنْجَاحِ الْحَوَائِجِ بِالْكِتْمَانِ» أخرجه الطبراني.

- وفوق كل ذلك: الثقة بنصر الله، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح:٥-٦)، وقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة:٢١).

وغير ذلك كثير..

نسأل الله تعالى أن يُتم نصره على المجاهدين في سوريا، وأن يقمع عدوهم، ويجعل العاقبة لهم، إنه سميع مجيب ■

فتـــــوى

هل موالاة الكفار كُفر بإطلاق؟

المكتب العلمي بهيئة الشام الإسلامية

السؤال:
ينتشر بين بعض الكتائب، وفي المجالس، وعلى صفحات الشبكة بصورها المختلفة إطلاق القول بتكفير من يوالي الكفار، ومنهم من ينقل الإجماع على ذلك. فهل هذا الكلام صحيح؟

الجواب:
الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فموالاة الكفار من الجرائم الكبيرة، وهي لفظ يطلق على شُعب متعددة، منها ما يصل للكفر، ومنها ما هو دون ذلك، وتفصيله كما يلي:

أولاً: تُطلقُ الموالاةُ والولاية في اللّغة وكلام أهل العلم على معانٍ عديدة، منها: القُرب، والدُّنوّ، والمحبة، والنُّصرة، والمتابعة، ويدلّ كلامُ أهلُ العلم على أنّ هذه الأفعال منشؤها المحبةُ والميلُ القلبي.

قال ابن تيمية -رحمه الله- في (الفتاوى): «أصلُ الموالاةِ هي المحبةُ، كما أنّ أصلَ المعاداة البغض، فإنَّ التّحابَّ يوجبُ التّقاربَ والاتّفاقَ، والتّباغض يوجب التّباعدَ والاختلافَ».

وينشأ عن الحب والبغض من أعمال القلوب والجوارح ما يدخلُ في حقيقة الموالاة والمعاداة، كالنُّصرة والمعاونة، والمظاهرة، وغير ذلك من الأعمال.

وقد حرّم الله موالاة الكافرين وزجر عنها، وجعلها سبباً لسخط الرحمن، فقال تعالى: ﴿تَرى كَثيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ﴾ (المائدة:٨٠).

ثانيًا: لا يصح التكفير بمطلق الموالاة، فمن صور الموالاة ما هو كفر مخرج من الملة بالاتفاق، ومنها ما لا يصل إلى درجة الكفر، ومنها ما اختلف فيه: هل يكون كفرًا أم لا.

وهذا التفريق جارٍ على أصول أهل السنة، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية، وفهم علماء الأمة.

ومن الصور التي تناولها أهل العلم في هذا الباب:

أ- اتفق أهلُ العلم على أنّ الموالاةَ التامة الكاملة للكفّار بالرّضى عن دينهم، أو تصحيح مذهبهم، أو حبِّ ظهور الكفر على الإسلام، ونحو ذلك، من موجبات الرّدة والخروج من الملة.

قال الإمام الطبري -رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ (آل عمران:٢٨): «لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفارَ ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم؛ فإنه مَن يفعل ذلك، فليس من الله في شيء، يعني بذلك: فقد برئ من الله، وبرئ الله منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر».

وقال الماوردي -رحمه الله- في (تفسيره): «والثاني: موالاتهم في الدّين فإنه منهم في حكم الكفر، وهذا قول ابن عباس».

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- في (زاد المسير): «مَن يتولهم في الدّين، فإنه منهم في الكفر».

وقال الشّنقيطي -رحمه الله- في (أضواء البيان): «وَيُفْهَمُ مِن ظواهر هذه الآيات أَنَّ مَنْ تَوَلَّى الْكُفَّارَ عَمْدًا اختيارًا، رَغْبَةً فيهم أَنَّهُ كافرٌ مِثْلُهُمْ».

ب- ذهب عامة العلماء إلى أنّ التجسسَ للكفّار على المسلمين من الكبائر والمعاصي التي لا تُخرج من الملة، مع أن الله سماه في كتابه موالاة بقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ (الممتحنة:١).

وقد استدلوا لذلك بحديث حاطب رضي الله عنه -المتفق عليه- حينما كاتب قريشاً بمسير النّبي ﷺ إليهم، فسأله النبي ﷺ: «يا حاطبُ ما حملك على ما صنعت؟»، فذكر حاطبُ رضي الله عنه أنه لم يفعله كفراً ولا ارتداداً عن الإسلام، وإنما فعله ليكون له يدٌ عندَ قريش يدفعُ بها عن أهلِه، فقال النبي: «لقد صدقكم»، وفي لفظ: «ولا تقولوا له إلا خيراً».

قال الإمام الشافعي -رحمه الله- في (الأم): «وليس الدِّلالةُ على عورة مُسلم، ولا تأييدُ كافر بأَن يُحَذِّرَ أَنَّ الْمُسلمينَ يُريدُونَ منهُ غِرَّةً ليحذَرَها، أو يتقدَّمَ في نكايةِ المسلمينَ بِكُفْرٍ بَيِّنٍ».

وقال ابنُ بطّال -رحمه الله- في (شرح البخاري): «وفيه: أنّ الجاسوس قد يكون مؤمنًا، وليس تجسسُه مما يُخرجه من الإيمان».

وذكر نحو هذا المعنى ابنُ حجر، والعيني، والقسطلاني -رحمهم الله- في شروحهم على البخاري.

وقال ابنُ العربي في (أحكام القرآن)، والقرطبي في (تفسيره): «مَنْ كَثُرَ تَطَلُّعُهُ على عَورات المسلمينَ، ويُنَبِّهُ عليهم، ويُعَرِّفُ عَدُوَّهُم بِأَخْبارِهِمْ لَمْ يَكُنْ بذلكَ كافرًا إذا كانَ فَعَلَهُ لِغَرَضٍ دُنيويّ، واعتقادُهُ على ذلكَ سَليمٌ، كما فَعَلَ حاطبٌ حينَ قَصَدَ بذلكَ اتِّخاذَ اليدِ، ولم ينوِ الرّدة عن الدّين».

وقال النّووي -رحمه الله- في (شرح مسلم): «وفيه أنّ الجاسوسَ وغيرَه من أصحاب الذّنوب الكبائر لا يكفرون بذلك، وهذا الجنس كبيرةٌ قطعاً؛ لأنه يتضمن إيذاء النبي ﷺ، وهو كبيرةٌ بلا شك».

وقال ابن تيمية -رحمه الله- في (الفتاوى): «وقد تحصلُ للرّجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنباً ينقص به إيمانُه، ولا يكونُ به كافراً كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾».

وقال ابن القيم -رحمه الله- في (زاد المعاد) في فوائد قصة الفتح: «وفيها: جَوازُ قَتْلِ الجاسوس وَإِنْ كانَ مُسْلمًا.. وفيها: أَنَّ الكبيرَةَ العَظيمَةَ مِمَّا دُونَ الشِّرْكِ قَدْ تُكَفَّرُ بِالحسَنَةِ الكبيرةِ الماحيةِ، كما وَقَعَ الجَسُّ مِنْ حاطب مُكَفَّرًا بِشُهودِهِ بَدرًا».

ولا نعلمُ أحداً مِن أهلِ العلمِ نصَّ على كفرِ الجاسوس المسلم بمجرد الجسّ، بل نصّ الإمامُ الشافعي على أنّ الخلافَ في تكفيره غيرُ معتبر، فإنه بعدما بيّن أنّ التّجسسَ بأنواعه ليس بكُفر بيّن سُئل: «أقلتَ هذا خبراً أم قياساً؟ قال: قلتُه بما لا يسع مسلماً عَلِمَه عندي أنْ يخالفَه بالسنّة المنصوصة بعد الاستدلال بالكتاب».

جـ - وقع الخلافُ بين أهل العلم في حكم مناصرة الكفار وإعانتهم في حربهم على المسلمين بالنّفس أو المال أو الرأي أو غير ذلك، إذا لم تكن موالاةً تامّةً، ولا حباً لدينهم، وذلك على اتجاهين:

الاتجاه الأول: أنَّ مجرد مناصرة الكفار على المسلمين من موجبات الردة والخروج من الملة؛ لأنّ ظاهر القرآن الكريم يدلّ على كفر مَن يبذل الموالاة للكافرين، بالأعمال الظاهرة من النصرة والإعانة والمظاهرة:

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُم فَإِنَّهُ مِنهُم﴾: «فَإِنَّ مَن تَوَلَّاهُمْ ونَصرهُم عَلى الْمُؤمنينَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ دِينهم وملّتهم؛ فَإِنَّهُ لا يَتولّى مُتَوَلٍّ أَحَدًا إلّا وَهُوَ به وَبدينه وما هُوَ عَليه راض، وَإِذا رَضِيَهُ ورضيَ دينهُ فَقَدْ عادَى ما خالَفَهُ وسَخِطَهُ، وصارَ حُكمُهُ حُكمَهُ».

وقال الجصّاص: «وَإِنْ كانَ الْخطابُ للمُسْلمينَ فَهُوَ إخبارٌ بِأَنَّهُ كافرٌ مِثْلُهُم بِمُوالاته إيّاهُمْ».

وقال ابنُ حزم -رحمه الله- في (المحلى): «وَصَحَّ أَنَّ قَوْلَ اللَّه تَعَالَى ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ﴾ إنَّمَا هُوَ عَلى ظاهره بِأَنَّهُ كافرٌ من جُملَة الْكُفّار فَقَطْ - وهذا حَقٌّ لا يَختلفُ فيه اثنانِ من المسلمينَ».

وقال العز بن عبد السلام -رحمه الله- في (تفسيره): «﴿فَإِنَّهُ مِنْهُم﴾ مثلُهم في الكفر، قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما».

وقال الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- في بيان حكم التعاون مع الإنجليز والفرنسيين أثناء عدوانهم على المسلمين: «أما التعاونُ مع الإنجليز، بأيّ نوع من أنواع التّعاون، قلّ أو كثر، فهو الردّة الجامحة، والكفر الصّراح، لا يُقبل فيه اعتذارٌ، ولا ينفع معه تأوّل، ولا ينجي من حكمه عصبية حمقاء، ولا سياسة خرقاء، ولا مجاملة هي النفاق، سواء أكان ذلك من أفراد أو حكومات أو زعماء».

الاتجاه الثاني: أنّ موالاة الكفار ومعاونتَهم على المسلمين لا تكون كفراً بمجرد الفعل ما لم يصاحبها رضى بدينهم، أو تصحيح مذهبهم، أو حبُّ ظهور الكفر على الإسلام، ونحو ذلك.

قال السعدي -رحمه الله في (تفسيره) لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٩): «إن الظّلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولياً تاماً كان ذلك كفراً مخرجاً عن الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظٌ وما هو دونه».

وقال: «لأنّ التولي التّام يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرّج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبدُ منهم».

وقال ابن عاشور -رحمه الله- في (التحرير والتنوير) عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾: «وقَد تَأَوَّلَهَا الْمُفَسِّرُونَ بأَحَد تَأويلَين: إمّا بحَمْل الولايَة في قَوله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ﴾ عَلى الوَلايَة الكاملَة الّتي هيَ الرِّضى بدينهم، وَالطَّعْنُ في دين الإسلام، . .وَإمّا بتأويل قَوله: ﴿فَإِنَّهُ منْهُم﴾ عَلَى التَّشْبيه البَليغ، أيْ فَهُوَ كَواحد منْهُم في استحقاق العذاب... وَقَد اتَّفَقَ عُلَماءُ السُّنَّة على أَنَّ ما دُونَ الرِّضا بالْكُفْر، ومُمالأتهم عَلَيه من الوَلاية لا يُوجبُ الخرُوجَ من الرِّبقَة الإسلاميَّة، وَلكنَّهُ ضَلالٌ عَظيمٌ، وَهُوَ مَراتبُ في القُوَّة بحَسَب قُوَّة المُوَالاة، وَباختلاف أَحوال المسلمينَ».

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في (الدرر السنية): «ثانيًا: موالاة خاصة، وهي موالاة الكفار لغرض دنيوي مع سلامة الاعتقاد، وعدم إضمار نية الكفر والردة كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة في إفشاء سر رسول الله ﷺ في غزو مكة كما هو مذكور في سبب نزول سورة الممتحنة».

وقال: «مسمى الموالاة يقع على شعب متفاوتة، منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات».

واستدل أصحاب هذا الاتجاه أيضا بما سبق تقريرهُ من عدم تكفير الجاسوس المسلم بمجرد جَسِّه، مع أنّ التجسسَ لصالح الكفار على المسلمين من أعلى درجات الإعانة، وقد سمّاه الله موالاةً في كتابه.

وقال ابن تيمية فيمَن يقاتل المسلمين مع التتار: «وأيضاً لا يقاتل معهم غير مكرهٍ إلا فاسقٌ، أو مبتدعٌ، أو زنديقٌ».

وقال: «وكلّ مَن قفز إليهم من أمراء العسكر وغير الأمراء فحكمُه حكمُهم، وفيهم من الردّة عن شرائع الإسلام بقدْرِ ما ارتدَّ عنه من شرائع الإسلام».

وقال أبو حيان الأندلسي -رحمه الله- في (البحر المحيط): «وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ بِأَفْعَاله دُونَ مُعْتَقَده وَلَا إخْلَال بإيمَان فَهُوَ منْهُمْ في الْمَقْت وَالْمَذَمَّة، وَمَنْ تَوَلَّاهُمْ في الْمُعْتَقَد فَهُوَ منْهُمْ في الْكُفْر».

ثالثًا: ما سبق تقريرُه من التّكفير ببعض صور الموالاة إنما هو في التّكفير المطلَق، وبيان أنّ هذا الفعلَ من المكفرات وموجبات الرّدة، وأما الحكمُ على معين بالكفر والردّة بإطلاق، فلا يجوز؛ إذ لا بدّ من توافر الشروط وانتفاء الموانع، كما هي قاعدة أهل السنة والجماعة في باب التكفير، خلافًا لأهل الغلو.

كما دلّت النصوص وأقوال العلماء على اعتبار الإكراه والتأويل عذراً شرعياً في باب الموالاة يمنع لحوقَ الوعيد، فلا يكْفُرُ مَن كان مع الكفّار في صفّهم وهو مكرَهٌ، أو متأوّل.

فعن أم سلمة رضي الله عنها، عن النّبي ﷺ أنّه ذكر الجيشَ الذي يُخسف بهم، فقالت أم سلمة: «لعلّ فيهم المكرَه!»، قال: «إنهم يُبعثون على نيّاتهم» رواه الترمذي وابن ماجه.

وفي رواية لمسلم: «فكيف بمَن كان كارهاً؟!».

وعند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: «وفيهم أسواقُهم، ومَن ليسَ منْهُم».

فدلّت هذه الأحاديثُ على أن الذين يخرجون للقتال في صفوف العدو متفاوتون، وفيهم المجبور، وفيهم الكاره، وفيهم المستبصر، وهم مختلفون في الحكم، ويبعثون على نيّاتهم فالأمرُ راجعٌ إلى النِّيَّة.

قال ابن تيمية في (الفتاوى): «وليس لأحد أنْ يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة».

وقال: «إذا كان المسلمُ متأوّلا في القتال أو التّكفير لم يَكفُر بذلك».

رابعًا: ليس من موالاة الكفار في شيءٍ اللقاءُ بهم، أو مفاوضتهم، أو التعاون معهم على مصلحة مشتركة فيها خير للمسلمين، فهذه الصور وأشباهُها لا تدخل في موالاة الكفار أصلاً، فضلاً عن جعلها من الموالاة المكفّرة، فضلاً عن تكفير المعينين بها من أفراد وجماعات.

نسأل الله أن يبصرنا بديننا، وأن يجنبنا الفتن، وأن يثبتنا على الطريق المستقيم.

والحمد لله رب العالمين ■

سوريا: الحشد الشعبي لبناء منظومة سياسية رشيدة

د. بشير زين العابدين

كشفت أحداث الثورة السورية عن وجود خلل بنيوي كامن في النظام الجمهوري، وعن مشاكل عميقة لمجتمع عانى ستة عقود من التهميش والإقصاء.

وأظهرت أحداث السنوات الثلاثة الماضية أن الانهيار المفاجئ للمنظومة الجمهورية في العالم العربي قد جاء كنتيجة حتمية لارتكاز السلطة على قواعد ضيقة من الفئات الحاكمة والاستناد إلى القوة العسكرية دون التأييد الشعبي، وفشل النظم الثورية في تشكيل علاقة متوازنة بين الدولة والمجتمع، إضافة إلى ضعف البناء الاقتصادي، وسوء توزيع الثروة كأمراض كانت تنخر في هذه الدول وتمنعها من تشكيل نظام أمني متوازن.

ونتيجة لذلك فإن الجمهوريات العربية كالعراق وتونس وليبيا ومصر واليمن؛ تشهد مرحلة انتقالية عصيبة وحاسمة من التكون البنيوي، وتواجه التحدي الأكبر المتمثل في تعزيز الهوية الوطنية وتحقيق الإجماع الشعبي.

أما في سوريا؛ فإن الحراك الثوري يمر بمرحلة من الجمود السياسي والعسكري، ويمكن تفسير حالة الاحتباس التي يتسم بها المشهد الراهن من خلال النظرية «البنيوية»، حيث رأى «تيد غور» أن الثورات تمر بثلاثة مراحل:

١- مرحلة السخط الشعبي العارم غير المنسق.

٢- سعي القوى الشعبية للانخراط في حراك ثوري منظم.

٣- تطور البناء السياسي والعسكري للثورة إلى مستوى الندية مع النظام، ثم التفوق عليه تدريجياً لهدم أركانه وتفكيك مؤسساته، وتكوين بديل مؤسسي قادر على ممارسة الإدارة والحكم.

ومن خلال هذه المعطيات يمكن القول أن النصر الفعلي للثورة لا يقتصر على إسقاط النظام؛ بل يتمثل في قدرة القوى الثورية على تشكيل منظومة سياسية رشيدة تشكل بديلاً مؤسسياً قادراً على الأخذ بزمام المبادرة الداخلية والتعامل مع القوى الإقليمية والدولية بحنكة واحتراف.

وفي وقفة مراجعة للحراك الثوري السوري يمكن القول أن التطور البنيوي قد انحرف في مساره خلال الأشهر الماضية، ويظهر ذلك جلياً من خلال تقوقع بعض القوى الفاعلة في قوالب صلب لا تتمتع بالمرونة التي تسمح لها بالتأقلم مع الأحداث والمستجدات؛ وتقمص البعض منها نمطاً من التشكل البنيوي المنفصم عن الحراك الشعبي وعن المجتمع واتخاذ مواقف سياسية متشددة تنطلق من ادعاء الوصاية على الثورة عبر تبني مجموعة شعارات تقوم على مفهوم: «التصرف الصحيح» مثل: «تحقيق المصلحة العامة» و «صيانة الهوية»، و«محاربة العدو»، و«صد المؤامرات»، و«ترسيخ الاستقلال»، و«تحقيق الإصلاح»، لكنها لا تملك على أرض الواقع برنامجاً سياسياً قابلاً للتحقيق.

ومن أبرز مساوئ هذه المنظومة الفكرية؛ تعزيز حالة الريبة تجاه الخارج، وتنمية مشاعر العداء تجاه أي فكر معارض، مما يجعل الحركة أسيرة هواجس أمنية، ويدفعها لرفض أية مبادرات لا تنبثق من منطلقاتها الفكرية.

ونظراً لما تشكله هذه الرؤية من خطورة على مسار الثورة، فإن هذه الورقة تلقي الضوء على التحشيد الشعبي كوسيلة حتمية لبناء نظم سياسية رشيدة تشكل تياراً شعبياً ناضجاً، والتأسيس لمنظومة سياسية تقود الحراك الثوري عبر استعراض ثلاثة نماذج من أنماط التحشيد الشعبي في التاريخ السوري المعاصر، وهي:

١- نموذج التحشيد الفئوي القائم على استقطاب الهويات المتعددة.

٢- نموذج التحشيد الفكري القائم على مفهوم الدولة - الأمة أو الهوية الجامعة.

٣- نموذج تحشيد القوى المجتمعية القائم على توظيف عوامل الجغرافيا السياسية في صياغة النظم.

أولاً: نموذج التحشيد الفئوي (استقطاب الهويات المتعددة لتشكيل منظومة سياسية):

يرتكز هذا النموذج على تأسيس منظومة سياسية من خلال تشكيل ائتلاف هش يضم الهويات الرئيسية داخل المجتمع بناء على أسس مجتمعية: مناطقية، ودينية، وطائفية، وإثنية، وعشائرية، ويتشكل في عدة صيغ منها: نظام «الترويكا» المطبق في لبنان، ونمط المحاصصة الطائفية السائد في العراق، والنظم الفيدرالية القائمة على مفهوم الفرز المناطقي، وينطلق هذا النموذج من أسس متجذرة في التاريخ السوري الحديث والمعاصر:

فقد اتبعت الدولة العثمانية مع الأقليات الدينية في بلاد الشام نظام «الملة» الذي منحهم قضاءهم المستقل وإدارتهم الخاصة، واعترف لهم بحماية قناصل الدول الغربية.

وفي مرحلة الانتداب (١٩٢٠-١٩٤٦) أمعنت السلطة الفرنسية في ترسيخ الثقافة الطائفية ونسَّبت أبناء الطوائف إلى فرق جيش الشرق، وعمدت إلى تقسيم الإقليم إلى خمسة دول على أسس طائفية هي: دولة لبنان، ودولة حلب، ودولة «العلويين»، ودولة «جبل الدروز»، ودولة دمشق، ومارست السلطة الفرنسية حكماً مستقلاً للأكراد في إقليم الجزيرة.

وبعد فترة وجيزة من الحكم الديمقراطي (١٩٤٦-١٩٦٣) بادر نظام البعث إلى ترسيخ الهيمنة الطائفية - العشائرية، وأخذت هذه الصفة بعداً مؤسسياً في مرحلة حكم آل أسد (١٩٧٠-٢٠١١).

ولا بد من التأكيد على أن مشكلة الأقليات لا تقف عند مطالب هذه الفئات بالمحافظة على الامتيازات التي منحها لهم النظام الفرنسي ورسخها حكم البعث، بل تمثل في حقيقتها مشكلة ديمغرافية يتعين التعامل معها بواقعية وحذر؛ ففي كثير من الحالات لا يقتصر

الانتماء إلى الطائفة على المفهوم الاعتقادي فحسب؛ بل يمثل انتماء إقليمياً وعشائرياً لأبناء الطوائف في آن واحد، حيث تقطن الغالبية العظمى من عشائر العلويين في جبال الأنصارية مع وجود أقل في ريف حماة وحلب، ولاحظ فان دام بأن نسبة ٦٢,١ بالمائة من العلويين يقيمون في محافظة اللاذقية، بينما كانت تتركز الغالبية العظمى من الدروز في جبل حوران (جبل العرب) بنسبة ٨٧,٧ بالمائة. ويقيم الإسماعيليون في منطقتي مصياف والسلمية.

وقد أدى تفوق العنصر العلوي في المؤسسة العسكرية إلى هيمنة هذه الفئة على الحكم المدني في فترة الانقلابات العسكرية، مما أدى إلى ظهور العنصر العسكري-الطائفي في إدارة البلاد.

وبناء على ما سبق؛ فيمكن تحديد مصادر القوة الكامنة لهذا النموذج في توظيف العصبوية: العشائرية - الطائفية - المناطقية، بالإضافة إلى ارتكازها على الهيمنة العسكرية والإرث التاريخي المعاصر.

ثانياً: نموذج التحشيد الفكري (توظيف مفهوم الهوية الجامعة أو الدولة الأمة):

يقوم هذا النموذج من خلال تأسيس هوية فكرية أو إيديولوجية جامعة، عبر تغليب العوامل المشتركة بين غالبية أبناء المجتمع على أساس قومي، أو ثقافي، أو تاريخي، ويمكن تناول ثلاثة مشاريع في الفترة المعاصرة، وهي:

١- المملكة الفيصلية (١٩١٨-١٩٢٠م).
٢- مشروع الوحدة مع العراق (١٩٤٩م).
٣- الوحدة مع مصر (١٩٥٨-١٩٦١ م).

وقد انتهت هذه المشاريع الثلاثة بالفشل؛ نظراً لارتكازها على حركات قومية أثبتت عجزها عن تطوير أسس فكرية ناضجة، فالدولة القومية التي أسسها فيصل لم تستطع تقديم بديل عن الدولة الشرقية التي تمزج السياسة بالدين، بل اتخذت من النمط الغربي أساساً لبناء الدولة الحديثة التي قامت على قولة فيصل: «الدين لله والوطن للجميع»، إلا أن هذه السياسة كانت بالنسبة له سلاحاً ذو حدين، فبينما اعتبرها القوميون وسيلة لتوحيد المجتمع على أساس العرق واللغة بعيداً عن خلافات الدين والطائفة والمذهب؛ نظر أبناء الطوائف إليها كمحاولة لتذويب هويتهم في غالبية المجتمع.

وكذلك كان الحال بالنسبة لمشروع الوحدة مع العراق الذي وئد في المهد عام ١٩٤٩م، والوحدة السورية مع مصر التي لم تصمد لأكثر من ثلاث سنوات وبضعة أشهر، وذلك على الرغم من نجاحها في عملية التحشيد الآني الذي قام على العاطفة والارتجال، بدلاً من عملية البناء السياسي المتدرج والرصين.

وفي مقابل فشل المشاريع الوحدوية لجأت النظم الجمهورية إلى صياغة هوية قطرية ذات طابع شمولي يستند إلى العسكر وليس على التأييد الشعبي، ومن أبرز ملامح الدولة القطرية:

١- الفكر القومي كمنطلق إيديولوجي.
٢- الطابع الانقلابي-الثوري.
٣- القائد العسكري رئيساً للجمهورية.
٤- الحزب الحاكم.

لكن هذه المنظومة السياسية قد انهارت بالكامل في مرحلة "الربيع العربي"، وبقيت مجموعة أسئلة عالقة لكل الحركات السياسية التي تبحث عن معالم الهوية الوطنية الجامعة وتأسيس الدولة-الأمة:

١- ما هو النظام البديل لحكم سوريا في ظل انهيار حكم البعث؟
٢- ما هي معالم الهوية السياسية للدولة في المرحلة القادمة؟



٣- ما الذي سيحكم العلاقة بين الأعراق والطوائف والأديان في ظل التوتر المجتمعي الذي أذكاه الفرنسيون ورسخه البعثيون وبلغ ذروته من الاحتقان في مرحلة الثورة؟

ولا بد من الاعتراف بأن هذه الورقة لا تحاول الإجابة على هذه التساؤلات، بل تهدف إلى التنبيه إلى هذه المشاكل والبحث في: مدى قدرة الجماعات السياسية القائمة على مواكبة الحراك المجتمعي، وأهليتها لطرح مشروع حضاري يقدم رؤية وطنية تشمل جميع عناصر المجتمع، خاصة وأن البديل عن اضمحلال الهوية القطرية يترنح حالياً ما بين خيارين صعبين: خطر التقسيم الطائفي-المناطقي من جهة، وخطر الأقلمة المتمثل في هيمنة الجماعات الطائفية العابرة للحدود من جهة ثانية.

ففي ظل اندراس معالم الهوية المجتمعية للدولة، وفشل القوى السياسية في التوافق على مشروع سياسي وطني؛ تتصاعد نبرة الاستقطاب الطائفي والإثني، وتهيمن الشبكات الراديكالية العابرة للحدود إثر مبادرة الإدارة الأمريكية بتمكين الجماعات الإثنية والطائفية من تولي حكم العراق عام ٢٠٠٣م، مما أدى إلى اضمحلال الحكم المركزي في الجمهوريات العربية المتهاوية.

ثالثاً: نموذج تحشيد القوى المجتمعية (توظيف الجغرافيا السياسية في صياغة النظم):

يمكن تعريف القوى المجتمعية بأنها: «الجماعات السكانية التي تقع بين الدولة والأسرة»، وهي المجموعات السكانية الفاعلة التي لا تتدخل الدولة في تأسيسها أو توجيهها أو تمويلها، بل تقوم بتحديد برامجها وأولوياتها بعيداً عن الدولة وهيمنها.

ويدخل ضمن هذا المفهوم المجتمع «الأهلي» وهو المجتمع النشط غير المنظم وغير المنخرط في صيغ مؤسسية، بالإضافة إلى «المجتمع المدني» الذي ينشط من خلال جملة من المؤسسات الأهلية التطوعية: الثقافية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، التي تعمل من أجل تلبية احتياجات مطلبية، أو سياسية، أو اجتماعية، وترعى مصالح أعضائها، أو تهتم بالشؤون العامة في المجتمع.

وقد أدى اضمحلال السلطة المركزية وانهيار نظم الحكم الجمهوري في البلدان العربية إلى تفعيل نشاط القوى المجتمعية غير المنظمة، والتي أخذت تتحرك في تيارات متباينة واتجاهات مختلفة لحماية مجموعاتها أو العمل على تحقيق المصلحة العامة.

وتنبثق أدوات تحشيد القوى المجتمعية من ثلاثية تقليدية هي: الأرض والدولة والأمة، ويمكن توظيفها في بناء منظومة سياسية رشيدة عبر أبعاد ثلاثة تعمل بالتزامن، وهي:

١- المكان الذي تشغله الوحدة السياسية.

٢- النظام السياسي القائم على الموقع الجغرافي ومصادر الثروة.

٣- الأمة كمستودع للإجماع السياسي.

والحقيقة هي أن قوى الثورة السورية تحتاج في المرحلة الراهنة إلى قدر كبير من «أنسنة» العمل السياسي، والخروج به من إطار النصية إلى الآفاق المجتمعية وضرورة توظيفها؛ ففي الوقت الذي تختص فيه السياسة بالنظريات والنظم والعلاقات الدولية، تختص الجغرافيا السياسية بالعوامل الإنسانية في السلوك السياسي وتحديد علاقة الدولة بالمجتمع.

وكان ابن خلدون قد سبق المنظرين الغربيين في إعطاء الصفة الإنسانية للدولة عبر تشبيهها بالإنسان في مراحله الخمسة: الولادة والصبا والنضج والشيخوخة والموت، ومنذ ذلك الحين ارتبط مفهوم بناء الدولة بنظريات: «العقد الاجتماعي»، التي ترى أن السلطة في حقيقتها هي عقد بين الدولة والمجتمع.

وقد حاول الباحث في النموذجين السابقين تحليل تأثير الخصائص الطبيعية البشرية على السلوك السياسي للبلاد، حيث هيمن نموذج الاستقطاب الفئوي واضمحل مشروع الدولة-الأمة في القرن العشرين، مع ضرورة التنبيه إلى أن السبب المباشر لاندلاع الثورة في ١٨ مارس ٢٠١١م قد جاء كنتيجة مباشرة لفشل النظام في تقدير مخاطر البعد العشائري عند أهل حوران وما يتميزوا به من حمية ونخوة.

ولإنشاء بديل مؤسسي ناضج فإن الحركات السياسية المعاصرة تحتاج إلى دراسة العوامل المجتمعية لمراجعة أدواتها في الحشد السياسي وسعيها لتحقيق الإجماع الأهلي، مع ضرورة الوعي بأن الحراك السياسي لم يعد أحادياً (بالمفهوم القومي)، أو ثنائياً (بمفهوم الاستقطاب الفئوي)، بل أصبح تعددياً بامتياز، ولا بد من صياغة استراتيجيات جديدة تتناسب مع المتغيرات المجتمعية وتعدد الفرقاء.

وبالنظر إلى التطور البنيوي في مسار الثورة السورية خلال السنوات الثلاثة الماضية؛ يمكن تحديد مكامن الخلل والقصور لدى القوى الفاعلة في تعاملها مع المجتمعات فيما يأتي:

١- العمل من خلال بيئة حزبية مركزية يتراوح تاريخ تأسيسها ما بين العقد الثالث والسادس من القرن العشرين، دون أية مراجعة أو تطوير بنيوي.

٢- محاولة صياغة برامج ومنظومات سياسية على أسس قراءات نصية خاطئة لا ترتبط بالواقع وبطبيعة الدولة والمجتمع.

٣- الاستقراء الخاطئ لنماذج تاريخية من الحكم الرشيد، والركون إلى نظرية الدورة التاريخية لصياغة بنى مؤسسية معاصرة لا علاقة لها بالمجتمع.

٤- الركون إلى مفاهيم «القوة» الرديفة المتمثلة في الدعم الخارجي والسيطرة على الأرض، مع إهمال ملحوظ للعنصر الأكثر أهمية وحسماً في المرحلة القادمة وهو: الرصيد شعبي.

ويجدر التنبيه على أن عملية الحشد الشعبي لنظام سياسي رشيد يختلف في آلياته وأنماطه عن عملية الحشد في عملية انتخابية أو كسب أعضاء لحزب سياسي، وذلك من حيث: محاور الخطاب، وملامح الهوية، وآليات التعامل مع الخصوم، مما يدفع بالحركات السياسية إلى إعادة كتابة برامجها، ومراجعة منطلقاتها الفكرية، وتصحيح بنيتها التنظيمية، وفق مفاهيم جديدة تعمل على استيعاب عوامل التحشيد المنبثقة من الجغرافيا السياسية، وذلك بهدف إنشاء منظومة سياسية جامعة رشيدة، وليس من خلال التأسيس لهوية «قومية» تعمل من خلال نظم قديمة لا تتناسب مع عمق التحولات الراهنة وطبيعة المرحلة، وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه الحركات القومية - اليسارية عندما نزعت إلى إلغاء الهويات الأخرى لصالح توليفة غير ناضجة من الخطب والشعارات.

ولعل الصيغة الأمثل لتأسيس منظومة سياسية رشيدة هي العمل على جمع العوامل المشتركة لدى أكبر عدد من المجموعات السكانية فيما يحقق المصلحة العامة ويجلب الأمن والاستقرار للدولة ولجيرانها، وذلك من خلال استقراء تطبيقات ونماذج الدولة الشرقية التعددية (cosmopolitan) عبر العصور.

أما البعد الآخر لمفهوم «أنسنة» العمل السياسي وضرورته في هذه المرحلة؛ فيكمن في ضرورة استيعاب علاقة المكان بالمنظومة السياسية وتأثير تطور العلاقات المجتمعية على الأمن الإقليمي والدولي.

ويمكن في هذا الإطار إعمال نظرية «العلاقة بين القلب والحافة» التي أسس لها عالم الجغرافيا السياسية «تايلور»، وتنص على أن المتغيرات التي تقع في مناطق ذات أهمية مركزية لا بد وأن تكون لها تبعات على الدول المجاورة، وذلك بخلاف الدول التي تقع في مناطق هامشية قد لا يكون للتطورات الداخلية فيها تأثير على المحيط الإقليمي.

وقد أثبتت أحداث الثورة السورية وجود ارتباط وثيق بين الأحداث الداخلية والأمن الإقليمي، حيث هيمن على المحللين الإستراتيجيين هاجس «مخاطر الامتداد الإقليمي» (Regional Spillover) للأزمة السورية بصورة واضحة، وعلى الرغم من وضوح المهددات الأمنية ومخاطرها؛ إلا أن أطروحات معظم القوى السياسية السورية لا تزال تقصر إدراك ارتباط الأوضاع الداخلية بالأمن الإقليمي والدولي، وتتعامل هذه القوى مع الأزمة من منظور منفصل عن سائر المؤثرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تنعكس بصورة مباشرة على القوى المجاورة، وتؤثر على توازنات القوى في المنطقة.

ويظهر أثر هذا القصور في ضعف الأداء الدبلوماسي لدى الجهات التي تدعي تمثيل الثورة في المحافل الدولية، وعجزها عن صياغة رؤى أمنية ناضجة تقوم على مفاهيم «الأمن التعاوني» أو «الأمن المشترك»، وانزلاق بعض السياسيين في شرك الاصطفاف الإقليمي الذي يضعف الإرادة الوطنية ويغلب المصالح الخارجية.

ومن خلال تقييم تجربة السنوات الثلاثة الماضية يمكن القول أن قوى الثورة تمر بمرحلة عصيبة من التطور البنيوي، إلا أن مفهوم «التدرج» وعامل الوقت قد أصبحا «رفاهية» يصعب القبول بها في ظل المشهد الإنساني المروع، ولعل الصيغة الأمثل لمعالجة هذه المشكلة يكمن في تعزيز الوعي السياسي لدى القوى الفاعلة، وتوجيهها نحو الحشد الشعبي لبناء منظومة سياسية رشيدة تقود الحراك الثوري، ولعل الصيغة الأمثل للوصول إلى الاستفادة من هذه القوة الهائلة وتوظيف طاقاتها الكامنة يكمن في تعزيز الهوية الوطنية الجامعة بكامل أبعادها السياسية والإنسانية على حد سواء ■

لماذا أرادوا للثورة السورية أن تدخل عامها الرابع؟

فيصل القاسم

استغرقت الثورة التونسية ثمانية وعشرين يوماً فقط. أما المصرية فدامت لثمانية عشر يوماً بالتمام والكمال. صحيح أن الثورة أخذت بعض الوقت في اليمن، لكنها انتهت من حيث الفعل الثوري خلال فترة وجيزة. وحتى في ليبيا التي أخذت شكل الصراع السوري المسلح، انتهت الثورة خلال ثمانية أشهر على الأرض من خلال تدخل دولي. لا شك أن الأوضاع بعد الثورات في تونس ومصر واليمن وليبيا تعسرت في بعض الأحيان، وتفاقمت أحياناً أخرى، لكنها على الأقل انتهت بخسائر مادية وبشرية محددة تبدو مجرد «لعب عيال» بالمقارنة مع ما يحصل في سوريا من أهوال ودمار طال البلاد كلها، وبدأ يطال البلدان المجاورة، وحتى أنه راح يهز المنطقة العربية برمتها جيوسياسياً واقتصادياً. باختصار، لم يكن هناك مصلحة للكثير من القوى استمرار الثورات على الأرض في تونس ومصر واليمن وليبيا.

لاحظوا أيضاً كيف وضعوا حداً للأزمة الأوكرانية خلال أسابيع قليلة، فتنحى الرئيس يانوكوفيتش منعاً لمزيد من التفاقم. وهنا نتساءل: لماذا سمح العالم لبقية الثورات أن تنتهي بسرعة، بينما ترك الثورة السورية تتفاقم لتصبح وبالاً على السوريين والمنطقة عموماً؟ لا نعتقد أن الأمر مجرد تقاعس، أو إهمال، أو عدم مبالاة.

هناك الكثير من المؤشرات والدلائل على أن ترك الثورة السورية تتفاعل، وتأتي على الأخضر واليابس داخلياً، وتهز المنطقة برمتها خارجياً ليس أمراً عرضياً، بل يبدو مدروساً ومتعمداً. فلو كان هناك نية دولية حقيقية لانتهى الوضع قبل أن يدخل عامه الأول، لكنهم تركوه يدخل الآن عامه الرابع.

لاحظوا مثلاً أن أمريكا ترفض تسليح قوى المعارضة بسلاح مضاد للطيران، لا بل تمنع البلدان الأخرى من تقديم ذلك السلاح للجيش السوري الحر منذ زمن. فلو توفر ذلك السلاح على الأقل لتوازن الصراع على الأرض بين النظام والمعارضة، وبالتالي دفع الجانبين إلى مفاوضات حقيقية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من سوريا. لكن الواضح أن هناك خطة لإطالة أمد الصراع من خلال تزويد النظام بأعتى أنواع السلاح الروسي والإيراني، وتزويد قوى المعارضة بسلاح يسمح باستمرار القتال فقط، لكنه لا يسمح بحسم الأمور على الأرض، ولا حتى بتحجيم قوة النظام. وهذا لوحده دليل كاف على أن المطلوب في سوريا استمرار الاستنزاف والدمار.

لقد غدا واضحاً أن الجيش الحر يدخل منطقة ما، فيحاصره جيش النظام، وتجري المعارك، فتتدمر المنطقة، ويهاجر سكانها، فينتقل الجيش الحر إلى منطقة أخرى، وهلم جرّا. إنه مسلسل تدميري مفضوح يمارسه النظام وقوى المعارضة بنية التدمير المقصود والمبرمج والممنهج.

هل كان للكثير من القوى أن تسمح بإغراق سوريا بمختلف الجماعات المقاتلة القادمة من الخارج وتحويلها إلى أفغانستان أخرى، لو أن العالم كان يريد فعلاً حل القضية السورية؟ بالطبع لا. لقد فاقم دخول جماعات مختلفة إلى سوريا الوضع، وفتحه على احتمالات خطيرة للغاية، خاصة بعد دخول القوى الشيعية كحزب الله وغيره إلى ساحات

القتال. هنا بدا وكأنه حرب مذهبية مدروسة. لاحظوا أن القتال يجري الآن بين قوى شيعية وسنية بشكل مفضوح. وهناك من يرى بأن الحرب المذهبية الحقيقية في المنطقة انطلاقاً من سوريا مازالت في بداياتها، وأن القادم أعظم.

لقد انتهى مؤتمر جنيف دون أي ضغط دولي لإحراز أي تقدم. والأنكى من ذلك أن العالم منح الرئيس السوري بعد فشل المؤتمر ضوءاً أخضر لخوض الانتخابات الرئاسية كمرشح أوحد، مما يعني ضمناً إطلاق رصاصة الرحمة على مؤتمر جنيف الذي كان ينص على تشكيل هيئة حكم انتقالية تنتقل بسوريا إلى عهد جديد.

أين العهد الجديد بعد أن يفوز بشار الأسد بولاية رئاسية جديدة لسبعة أعوام؟ لاحظوا الآن كيف يتم التحضير لحملة الأسد الانتخابية وسط صمت ومباركة دولية لا تخطئها عين، وكأنها مكافأة دولية للدور الذي يلعبه النظام في خلخلة المنطقة وإعادة تركيبها. لقد تنحى الرئيس الأوكراني بعد مقتل مائة شخص وبضعة أسابيع فقط من المظاهرات، بينما يسمح العالم للرئيس السوري بالترشح والفوز في الانتخابات بعد نزوح ثمانية ملايين سوري داخلياً، وتهجير ستة ملايين خارجياً، وتدمير ثلاثة أرباع البلد، ومقتل مئات الألوف. لا يمكن أن يكون هناك هدف من وراء التعامي عن انتخاب بشار الأسد لفترة رئاسية جديدة سوى استمرار مسلسل التخريب داخل سوريا لتدمير ما لم يُدمر بعد، وإنهاك المنطقة خدمة لمشاريع دولية كبرى. ويرى بعض الساخرين أن الأسد لن يكون فقط رئيساً جديداً لسوريا، بل قائداً مُتوجاً لمشروع الفوضى الخلاقة الأمريكي.

ولو عدنا إلى تصريحات بشار الأسد نفسه بعد ستة أشهر على اندلاع الثورة في لقاء مع صحيفة (التايمز) البريطانية لوجدنا أن ما هدد به الأسد من فوضى وقتها يتحقق الآن على أرض الواقع بحذافيره، وكأنه كان يخطط مع قوى كثيرة لإيصال سوريا والمنطقة كلها إلى هذه النقطة الحرجة والخطرة جداً. قال الأسد وقتها: «إن سوريا تقع على فالق زلزالي خطير، وإذا تحرك هذا الفالق، ستخرب المنطقة بأكملها». لقد كان الرئيس السوري في ذلك التصريح يهدد بتنفيذ مشروع «الفوضى الهلاكة» نيابة عن صاحبه الأمريكي. ويبدو أنه أوفى بوعده تماماً.

لاحظوا الآن أن الوضع السوري بدأ يشكل خطراً وجودياً على باقي دول المنطقة، فعدد اللاجئين السوريين في لبنان أصبح أكثر من مليون ونصف، وبات يهدد تركيبة لبنان الديمغرافية. وكذلك في الأردن، ومصر، وتركيا. ناهيك عن أن وضع العراق يزداد سوءاً بالتناغم مع الوضع السوري. وهذا بحد ذاته تهديد مرعب للمنطقة. أضف إلى ذلك أن بعض دول المنطقة بدأت تهتز على وقع الزلزال السوري، وخاصة تركيا. ولا ننسى كيف بدأ الوضع السوري يستنزف خزائن بعض الدول العربية المنخرطة في الصراع.

ألا يرى ضباع العالم هذا الوضع الخطير داخل سوريا وعلى حدودها في الدول المجاورة؟ أم إنها الفوضى الخلاقة التي أرادوها لرسم شرق أوسط جديد، وها هو النظام السوري ينفذها على أكمل وجه؟ يبدو أن هذا هو المطلوب من إطالة عمر الأزمة السورية، فهم يستغلونها، ليس فقط لاصطياد العصفور السوري، بل لضرب عدة عصافير عربية وإقليمية بحجر واحد.

من مهازل هذا الزمان أن النظام السوري هو أكثر من هاجم مشروع «الفوضى الخلاقة» الذي أعلنته وزيرة الخارجية الأمريكية كوندوليزا رايس، وهو الذي يقوده الآن بإخلاص منقطع النظير. وسلم لي على «الممانعة والمقاومة» ■



واحــة الشعــــر

مناجاة

أبو السهيل الأندلسي

يا من يَرى ما في الضمير ويسمَعُ   أنــت المُـعَــدُّ لـكـل مـا يـتُـوقَّـع
يـا مـن يُـرجَّـى لـلـشـدائد كلَّها   يـا مَـن إلـيـه المُـشـتـكَى والمَـفـزَع
يا من خزائنُ رِزْقه في قولِ كُن   امنُنْ فـإن الخيرَ عندك أَجمع
ما لي سِوَى فقري إليك وسيلةٌ   فبالافتقارِ إليك فَـقْـري أدفع
ما لي سوى قَرْعِي لبابِك حِيلةٌ   فـلـئـنْ رَدَدْتَ فـأيَّ بــابٍ أقـرع
ومَن الذي أدعُو وأهْتِف باسمه   إن كـان فَضْلُكَ عن فقيرٍ يُمنع
إن كـانَ لا يـرجـوك إلا محسن   فالمذنبُ العاصى إلى مَن يرجع
حاشا لجودك أن تُقنّط عاصياً   الفَضْلُ أجـزلُ والمَواهـبُ أوسـع

(كان وأخواتها)

عاطف عكاشة

كـانَ الَّـتِـي أَعْـيَـتْـكَ أَمْ أَخَـواتـهـا   فَـعَـرَفْـتَ عَـنْ لُـغَـةٍ تَـجِـلُّ صِـفـاتُـها
مـا أَسْـهَـلَ اللُّغَةَ الَّتِي اسْتَصْعَبْتَها   لـوكُنْتَ تَسْمَعُ مـا يقولُ نُحاتُها
وإلَـيْـكَ أَمْـثِـلَةً تُـريـكَ سُـهولـةً   فِـي النَّحْو لا تَخْفى عَلَيكَ سِماتُها
قُلْ: كانَتِ الأَمْجادُ دَيْدَنَ أُمَّتي   حَـتَّـى رمـاهـا بـالْـهَـوانِ سُـبـاتُـها
صـارَ التَّمَزُّقُ في الْخُطوبِ لِباسَها   حَـتَّـى تَـعَـرَّتْ واسْـتَـبانَ شَـتـاتُـها
أَمْسى اخْتِلافُ الرَّأْيِ عُنْواناً لَها   فَتَشَعَّبَتْ واسْتَفْحَلَتْ أَزَماتُها
ويُقالُ: مـا انْفَكَّ الْجِهادُ مُعَطَّلاً   حَـتَّـى أُبيحَتْ لِلْعِدا حُرُماتُها
ويُقالُ: مـا بَـرِحَ السَّلامُ خِيارَها   حَتَّى استراحَ مِنَ الْعَناءِ غُزاتُها
وتقولُ: مـا فَتِئَ الْحِصارُ وَسيلَةً   لِلْحاقِدينَ لِكَيْ تَلينَ قَناتُها
ويَـجـوزُ قَوْلُكَ: أَصْبَحَتْ مَطْلوبَةً   لِـتَـكونَ نَـهْـباً لِـلْـوَرى ثَـرَواتُـها
ويَـصِـحُّ قَوْلُكَ: ليسَ فيها بَلْدَةٌ   إلاَّ أَرادَ بِـهـا الـشُّـرورَ عِـداتُـها
وتَقُولُ: باتَ الْمَسْجِدُ الأَقْصى على   وَشْـكِ الضَّياعِ وما انْجَلَتْ غَفَلاتُها
وَيَظَلُّ يَصْرُخُ جُرْحُهُ في أُذْنِها   حَـتَّـى يُـبادِرَ بـالـدَّواءِ أُساتُها
مـا زالَ مِـعْـراجُ النَّبِيِّ يَحُثُّها   مُـتَـوَسِّـلاً ألاَّ تَـطـولَ سِـنـاتُـها
أَضْحى تُرابُ الْقُدْسِ يَسْأَلُ أُمَّتي   لِـمَ لا تُـرَفْـرِفُ فَـوْقَـهُ راياتُـها؟
ومِـنَ الْمُؤَكَّدِ قَوْلُنا: سَتَظَلُّ في   مِحَنٍ إلـى أن تَنْتَهي غَفَواتُها
ومِـنَ الْجَهالَةِ أَنْ يقولَ عِداتُها: أَضْحَتْ على وَشْكِ النَّفادِ حَياتُها
مـا دامَ رَبُّ الْكَوْنِ يَرْعى أُمَّتي   فَـمِـنَ الْحَماقَةِ أن يُـرادَ مَماتُها

نظرة في شموخ اليتيم

عبد الرحمن العشماوي

أسمى صفاتِكَ أنْ تكون كريما   وتـكـونَ بَـراً بـالـعـبـاد رحيما
أسمى صفاتِكَ أنْ تكونَ مميَّزاً   بسداد رأيكَ في الأمور، حكيما
تسعى بكَ الدنيا، وأنتَ تقودُها   بالحقِّ، تُسْعِدُ قلبها المهموما
تلقى الخطوبَ وأنتَ أرفَعُ هامةً   منها، وتأنَفُ أنْ تعيش ذَميما
أسمى صفاتكَ أنْ ترى الدنيا بلا   غَبَش، وأنْ يبقى الفؤادُ سليما
أنْ تجعل التاريخَ يَمْلأُ كأسَه   وتكونَ أنتَ رحيقَها المختوما
ترمي بسهمكَ، لا لِتَقْتُلَ آمناً   لكنْ لتحرُسَ خائفاً محروما
تسعى إلى كَسْب العلوم تقرُّباً   لله، لا ليُقَالَ: صار عليما
أسمى صفاتكَ أنْ تحلِّقَ عالياً   بجناح عدلكَ، تنصر المظلوما
يا حاملَ الدُّنيا على كتفِ الرِّضا   يا من رأيتُكَ للجَفاءِ غَريما
يا ساعياً للخير في العصر الذي   ما زال حَبْلُ وفائه مصروما
للخير أغصانٌ تطيب ثمارُها   فامنحْ جَناها خائفاً وعَديما
واحملْ إلى أفيائها الطفلَ الذي   ما زال في حُفَرِ الشقاء مقيما
فلَرُبَّ ماسحِ أَدْمُعٍ من مقلة   تبكي، رأى فضلاً بهنَّ عَميما
انظرْ إلى وجهِ اليتيمِ، ولا تكنْ   إلا صديقاً لليتيم حميما
وارسمْ حروفَ العطف حَوْلَ جبينه   فالعَطْفُ يمكن أنْ يُرى مرسوما
وامسح بكفِّكَ رأسه، سترى على   كفَّيكَ زَهْراً بالشَّذَا مَفْغُوما
ولسوف تُبصر في فؤادكَ واحةً   للحبِّ، تجعل نَبْضَه تنغيما
ولسوف تبصر ألفَ ألفِ خميلة   تُهديك من زَهْرِ الحياةِ شَميما
ولسوف تُسعدكَ الرياضُ بنشرها   وتريكَ وجهاً للحنانِ وسيما
انظرْ إلى وجه اليتيم وهَبْ له   عَطْفاً يعيش به الحياةَ كريما
وافتحْ له كَنْزَ الحنانِ، فإنما   يرعى الحنانُ، فؤادَه المكلوما
لولا الحنانُ لَمَا رأيتَ سعادةً   لولا السماءُ لَمَا رأيتَ نجوما
لولا الرِّياحُ لَمَا رأيتَ لَواقحاً   لولا البحارُ لَمَا رأيتَ غيوما
لولا الغصونُ لما رأيتَ ظلالَها   لولا الرعودُ لَمَا سمعتَ هَزيما
لولا الربيعُ لما رأيتَ زُهورَه   تشدو، ولا لامَسْتَ فيه نَسيما
يا كافلَ الأيتامِ، كأسُكَ أصبحتْ   مَلأَى، وصار مزاجُها تسنيما
ما اليُتْمُ إلاَّ ساحةٌ مفتوحةٌ   منها نجهِّز للحياةِ عظيما
ونحوِّل الحرمانَ فيها نعمةً   كُبْرى تُزيل عن الفؤادِ هموما
قَسَمَ الإلهُ على العباد حظوظَهم   فالكلُّ يأخذ حَظَّه المقسوما
وسعادةُ الإنسانِ أن يرضى بما   قَسَمَ الإلهُ، ويُعلنَ التَّسليما
قالوا: اليتيمُ، فقلتُ: أَيَتَمُ مَنْ أرى   مَنْ كان للخلُقِ النَّبيل خَصيما
قالوا: اليتيمُ، فقلتُ أَيَتَمُ مَنْ أرى   مَنْ عاشَ بينَ الأكرمينَ لَئيما
كم رافلٍ في نعمةِ الأبويْن، لم   يسلكْ طريقاً للهدى معلوما
يا كافلَ الأيتامِ، كفُّكَ واحةٌ   لا تُنْبِتُ الأشواكَ والزَّقُّوما
ما أَنْبَتَتْ إلاَّ الزُّهورَ نديَّةً   والشِّيحَ والرَّيحانَ والقَيْصُوما
أَبْشِرْ فإنَّ الأَرْضَ تُصبح واحةً   للمحسنين، وتُعلن التكريما
أبشرْ بصحبةِ خيرِ مَنْ وَطِئَ الثرى   في جَنَّةٍ كمُلَتْ رضاً ونَعيما
قالوا: اليتيمُ، وأرسلوا زَفَراتِهم   وبكوا كما يبكي الصحيحُ سَقيما
قلت: امنحوه مع الحنانِ كرامةً   فلرُبَّ عَطْفٍ يُوْرِثُ التَّحطيما
ولَرُبَّ نَظْرةِ مُشفقٍ بعثتْ أسىً   في قَلبه، جَعَلَ الشفيقَ مَلُوما
قالوا: اليتيمُ، فَمَاجَ عِطْرُ قصيدتي   وتلفَّتتْ كلماتُها تَعظيما
وسمعْتُ منها حكمةً أَزليَّةً   أهدتْ إليَّ كتابَها المرقوما:
حَسْبُ اليتيم سعادةً أنَّ الذي   نشرَ الهُدَى في الناسِ عاشَ يَتيما

طهارة المسلم (٥)

أحكام طهارة النساء

د. عماد الدين خيتي

معنى الحيض:

دم جِبِلَّة -أي خلقة وطبيعة- يخرج من قُبُل المرأة (أي المهبل) من غير مرض، ولا سبب ولادة ولا افتضاض بكارة.

مدة الحيض:

١- العمر الذي تحيض فيه المرأة:

بدايته: يرى كثير من العلماء أن وقته لا يبدأ قبل بلوغ الأنثى تسع سنين، فإذا رأت الدم قبل بلوغها هذا السن لا يكون دم حيض، بل دم عِلَّة وفساد (أي مرض).

نهايته: قد يمتد إلى آخر العمر، ولم يأت دليل على أن له غاية ينتهي إليها، فمتى رأت العجوز المسنة الدم المعتاد الذي له صفات الحيض: فهو حيض.

٢- طول مدة نزول دم الحيض:

لم يأت في تقدير أقل الحيض ولا أكثره ما تقوم به الحجة. فغالب النساء تكون حيضتها سبعة أيام، وبعضهن يقل عن ذلك لأربعة أو خمسة أيام، والقليل من تزيد على ذلك لثمانية أو تسعة أيام، ويوجد من يكون حيضها أقل أو أكثر من ذلك، لكنه قليل.

فإن اشتبه الدم النازل على المرأة هل هو دم حيض أم غيره، فلها حالتان:

أ- إن كانت لها عادة معروفة ومستقرة: فتعمل بها، لحديث أم سلمة رضي الله عنها: أَنَّهَا اسْتَفْتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي امْرَأَةٍ تُهَرَاقُ الدَّمَ (أي: ينزل منها دم كثير ومتواصل) فَقَالَ: «تَنْتَظِرُ قَدْرَ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ الَّتِي كَانَتْ تَحِيضُهُنَّ وَقَدْرَهُنَّ مِنَ الشَّهْرِ فَتَدَعُ الصَّلاةَ ثُمَّ لِتَغْتَسِلْ وَلْتَسْتَثْفِرْ (تشد على فرجها ما يمنع من نزول الدم) ثُمَّ تُصَلِّي» أخرجه أبو داود، والنسائي، وأحمد.

ب- وإن لم تكن لها عادة متقررة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدم مثل اللون؛ لحديث فاطمة بنت أبي حبيش، وفيه قول النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ دَمُ الْحَيْضَةِ فَإِنَّهُ دَمٌ أَسْوَدُ يُعْرَفُ» أخرجه أبو داود، فدلَّ الحديث على أن دم الحيض متميِّز عن غيره، معروف لدى النساء. ويمكن الآن معرفة دم الحيض بالرجوع لأهل الخبرة وهم الأطباء.

٣- مدة الطهر بين الحيضتين:

اتفق العلماء على أنه لا حد لأكثر الطهر بين الحيضتين.

واختلفوا في أقله: والحق أنه لم يأت في تقدير أقله دليل ينهض للاحتجاج به. فالمرجع فيه عادة كل امرأة.

الاستحاضة:

تعريفها: استمرار نزول الدم وجريانه في غير وقت الحيض أو النفاس.

أحوال المستحاضة: المستحاضة لها ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن تكون مدة الحيض معروفة لها قبل أن تصاب بالاستحاضة، وفي هذه الحالة تعتبر هذه المدة المعروفة هي مدة الحيض، والباقي استحاضة، لحديث أم سلمة السابق.

الحالة الثانية: أن لا تكون لها عادة محددة، ولكنها تستطيع تمييز دم الحيض عن غيره، وفي هذه الحالة تعمل بالتمييز، لحديث فاطمة بنت أبي حبيش: أنها كانت تستحاض، فقال لها النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ دَمُ الْحَيْضَةِ فَإِنَّهُ دَمٌ أَسْوَدُ يُعْرَفُ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَأَمْسِكِي عَنِ الصَّلاةِ فَإِذَا كَانَ الآخَرُ فَتَوَضَّئِي وَصَلِّي فَإِنَّمَا هُوَ عِرْقٌ» (أي: دم عرق انفجر، لا دم حيض) أخرجه أبو داود، والنسائي.

الحالة الثالثة: أن يستمر بها الدم، ولم يكن لها أيام معروفة، إما لأنها نسيت عادتها، أو لا تستطيع تمييز دم الحيض.

وفي هذه الحالة يكون حيضها ستة أيام أو سبعة، على غالب عادة النساء.

فإذا أمكن التمييز بين الحيض والاستحاضة بالرجوع لأهل الطب: فيجب العمل بما يقوله أهل الطب من التفريق بينهما.

أحكام المستحاضة:

١- لا يجب عليها الغسل لشيء من الصلاة، إلا حينما ينقطع حيضها. وبهذا قال الجمهور من السلف والخلف. لكن يجوز لها الاغتسال متى شاءت.

٢- يجب عليها الوضوء لكل وقت فريضة، وتصلي ما شاءت من الصلوات ما دامت على وضوء إلى وقت الفريضة الأخرى، كمن عنده سلس البول، وقد سبق بيان حكمه:؛ ولا تتوضأ قبل دخول وقت الصلاة.

٣- تغسل فرجها قبل الوضوء وتضع ما يمنع من تلوث الجسم والثياب بالدم.

٤- يجوز لزوجها أن يطأها ولو في حال جريان الدم؛ لأنه لم يرد دليل بالمنع، لكن لا بد من مراعاة احتمال الزوجة لذلك.

٥- لها حكم الطاهرات: فهي تصلي، وتصوم، وتعتكف، وتقرأ القرآن، وتمس المصحف، وتحمله، وتفعل كل العبادات.

النفاس:

تعريف النفاس: الدم الخارج من قُبُل (فرج) المرأة بسبب الولادة، وإن كان المولود سقطاً.

مدة النفاس:

١- لا حدَّ لأقل النفاس، فإذا ولدت وانقطع دمها عقب الولادة وانقضى نفاسها، لزمها ما يلزم الطاهرات من الصلاة والصوم وغيرهما.

٢- أكثره أربعون يومًا؛ لحديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: «كَانَتِ النُّفَسَاءُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَقْعُدُ بَعْدَ نِفَاسِهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» أخرجه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد.

قال الترمذي بعد هذا الحديث: «قد أجمع أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم، على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يومًا، إلا أن ترى الطهر قبل ذلك، فإنها تغتسل وتصلي، فإن رأت الدم بعد الأربعين، فإن أكثر أهل العلم قالوا: لا تدع الصلاة بعد الأربعين»، أي فيكون حكمه أنه دم استحاضة.

٢- الدم الذي يخرج أثناء الطلق: هو دم نفاس، ينبغي على من رأته ترك الصلاة والصوم.

أما الدم الذي يخرج قبل الطلق: فلا يعتبر دم نفاس، بل دم فساد، فلا تسقط الصلاة به وإذا لم تتمكن من الصلاة ا في وقتها، وجب قضاؤها بعد الطهر.

٣- رؤية الدم حال الحمل:

إذا رأت الحامل دماً: فهو دم استحاضة مطلقاً كيف كان؛ فلا يجتمع حملٌ وحيض.

ما يحرم على الحائض والنفساء:

تشترك الحائض والنفساء مع الجنب في جميع ما تقدم مما يحرم على الجنب، وفي أن كل واحد من هؤلاء يقال إنَّه محدث حدثًا أكبر، ويحرم على الحائض والنفساء -زيادة على ما تقدم- أمور:

١- الصوم: فلا يحل للحائض والنفساء أن تصوم، ولا يصحُّ منها.

ويجب عليها قضاء ما فاتها من الصوم، بخلاف ما فاتها من الصلاة، فإنه لا يجب عليها قضاؤه،

فعن عائشة رضي الله عنها: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلاَ نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاَةِ» أخرجه البخاري، ومسلم.

٢- الوطء: والمقصود به الجماع، وهو حرام بإجماع المسلمين، بنص الكتاب والسنة، فلا يحل وطء الحائض والنفساء حتى تطهر.

فقد سَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة: ٢٢٢) إِلَى آخِرِ الآيَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ» أخرجه مسلم، وفي لفظ (إِلاَّ الْجِمَاعَ).

٣- قراءة القرآن حال الحيض والنفاس: اختلف الفقهاء فيه، والراجح أنَّ لها أن تقرأه؛ لضعف الدليل الوارد في المنع: «لاَ تَقْرَأُ الْحَائِضُ وَلاَ الْجُنُبُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ» أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وهو ضعيف، وللفرق بينهما وبين الجُنُب؛ فإن الجنب يستطيع أن يُزيل هذا المانع بالاغتسال، وأمّا الحائضُ فليس باختيارها أن تزيل هذا المانع.

٤- ما يحل من الاستمتاع حال الحيض والنفاس: لا خلاف بين أهل العلم في جواز مباشرة الزوجة فيما فوق السرة ودون الركبة؛ فعَنْ حَرَامِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ عَمِّهِ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَا يَحِلُّ لِي مِنَ امْرَأَتِي وَهِيَ حَائِضٌ؟ قَالَ: «لَكَ مَا فَوْقَ الإِزَارِ» (ما يلبس لتغطية النصف الأسفل من جسم الإنسان) أخرجه أبو داود.

واختلفوا في مباشرتها فيما بين السرة والركبة، والراجح جوازه ما عدا الوطء؛ للحديث السابق: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ النِّكَاحَ».

عقيدة المسلم (٦)

الركن الرابع من أركان الإيمان: الإيمان بالرسل

الشيخ فايز الصلاح

الرسل: جمع (رسول) بمعنى: (مُرسَل) أي مبعوث بإبلاغ شيء. وهو من أوحى الله إليه من البشر، وبعثه لهدايتهم للحق. وأول الرسل نوح -عليه السلام- وآخرهم محمد ﷺ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ (النساء: ١٦٣).

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الشفاعة أن النبي ﷺ ذكر أن الناس يأتون إلى آدم؛ ليشفع لهم، فيعتذر إليهم ويقول: «ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ» وذكر تمامَ الحديث، أخرجه البخاري، ومسلم.

وقال الله تعالى في محمد ﷺ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

ولم تخلُ أمةٌ من رسول يبعثه الله تعالى بشريعة مستقلة إلى قومه، أو نبي يوحى إليه بشريعة من قبله؛ ليجددها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٣٦).

والرسل بشر مخلوقون، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، قال الله تعالى عن نبيه محمد ﷺ وهو سيد الرسل، وأعظمهم جاهًا عند الله: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٨).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (الجن: ٢١، ٢٢).

ويلحقهم ما يلحق البشر من المرض، والموت، والحاجة إلى الطعام، والشراب، وغير ذلك، قال النبي ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» أخرجه البخاري، ومسلم.

وقد وصفهم الله تعالى بالعبودية له في أعلى مقاماتهم، وفي سياق الثناء عليهم؛ فقال تعالى في نوح ﷺ: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣) وقال في محمد ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١).

وقال في إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب صلَّى الله عليهم وسلَّم: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾ (ص: ٤٥، ٤٧).

وقال في عيسى ابن مريم ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الزخرف: ٥٩).

والإيمان بالرسل يتضمن أربعة أمور:

الأول: الإيمان بأن رسالتهم حق من الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم؛ فقد كفر بالجميع، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠- ١٥١).

الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم تفصيلاً مثل: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح -عليهم الصلاة والسلام- وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وقد ذكرهم الله -تعالى- في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

وأما من لم نعلم اسمه منهم؛ فنؤمن به إجمالاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ٧٨).

الثالث: تصديق ما صحَّ عنهم من أخبارهم.

الرابع: العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم، وهو خاتمهم محمد ﷺ المرسل إلى جميع الناس، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥).

وللإيمان بالرسل ثمراتٌ جليلة منها:

الأولى: العلم برحمة الله تعالى، وعنايته بعباده، حيث أرسل إليهم الرسل؛ ليهدوهم إلى صراط الله تعالى، ويبينوا لهم كيف يعبدون الله؛ لأنّ العقل البشري، لا يستقل بمعرفة ذلك.

الثانية: شكره تعالى على هذه النعمة الكبرى.

الثالثة: مَحبَّةُ الرسل عليهم الصلاة والسلام وتعظيمهم، والثَّناء عليهم بما يليق بهم؛ لأنهم رسل الله تعالى، ولأنهم قاموا بعبادته، وتبليغ رسالته، والنُّصح لعباده.

الرابعة: الاقتداء بهديهم، والعمل بشرائعهم التي أنزلها الله عليهم هداية للبشرية ■

المؤمنون حقًا

د. محمد بن لطفي الصباغ

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (الأنفال: ٢ - ٤)، ذكرت هذه الآيات الصفات التي تُميز المؤمنين حقًّا، الذين اكتمَل إيمانُهم، فكانوا القدوة الصالحة للمسلمين، وهي الصفات الآتية:

١- تأثُّرهم بذكر الله تأثُّرًا إيجابيًا يدفعهم إلى العمل بالأوامر، وترْك الزواجر.
٢- إيمانهم النامي المتزايد المتقدِّم.
٣- توكُّلهم على الله وحده.
٤- إقامتهم الصلاة.
٥- إنفاقهم مما رزقهم الله.

جاء في تفسير ابن كثير: «قال عمرو بن مرة في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما نزَل القرآن بلسان العرب؛ كقولك: فلان سيد حقًّا، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقًّا، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقًّا، وفي القوم شعراء».

ما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يُراجعوا أنفسهم، ويَعرضوها على هذه الصفات؛ ليجدوا الجوابَ الشافي عن أسباب هذا الواقع الأليم الذي يَحيَونه في هذه الأيام!

ولننظر بقلب واعٍ إلى هذه الصفات:

أما الصفة الأولى: فهي وَجَلُ القلوب عند ذكر الله، إنها شفافية تجعل ذِكر الله سببًا للخشية والخوف من الله، فالخوف من الله صفة من صفات المؤمن الحق، والخوف من الله وقاية للمؤمن من الوقوع في غضَب الله وسخَطه، فمن خاف الله لم يَعصِه، ومن أجل ذلك كان الثواب العظيم لمن يخاف مَقامَ ربه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦)، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات: ٤٠-٤١).

إن الذي يخشى ربه بالغيب ويَحذر عذابه يُقيم بذلك الدليل على صدْق دعواه، الإيمان والخوف من الله صفة لا يمكن أن تُفارق المؤمن الحق أبدًا، والآية الكريمة تذكر حالة راقيةً من حالات الخوف من الله، وهي أن قلوب المؤمنين الذين يحبون الله ويَرجون ثوابه ويخشونه ويَحذرون عقابه تلك الحالة الراقية.

قال مجاهد وغيره: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: فزعت وخافت.

قال ابن كثير: «وهذه صفة المؤمن الحق، المؤمن الذي إذا ذُكر الله وجل قلبه؛ أي: خاف منه، ففعل أوامرَه وترَك زواجره».

ونقل سفيان الثوريّ عن السُّدي في تفسير هذه الآية قال: «هو الرجل يريد أن يظلم؛ أي يَهُم بالمعصية، فيقال له: اتق الله فيَجَل قلبه».

وأما الصفة الثانية: وهي زيادة الإيمان، فهي مما يقتضيه النظرُ في النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة، ومما يُحسّ به المرء في نفسه وفيمن حوله أنّ المؤمنين تطمئنّ قلوبهم بذكر الله، ويَزدادون إيمانًا بتلاوة آياته تلاوة متأمِّلة تنتهي بأصحابها إلى العمل؛ ذلك لأنّ حلاوة القرآن يتلمَّسها المرء كلما تُليتْ عليه آيات القرآن أو قرأها بنفسه، والمؤمن في ارتقاء وصعود.

وفي القرآن كنوزٌ لا تَفنى، وهو الذي لا تَزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يَشبَع منه العلماء، ولا يَخلَق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة: ١٢٤).

ومما يزيد الإيمانَ أداءُ الواجبات بإخلاص، واجتنابُ المحرّمات والمكروهات بقناعة ومجالسة الصالحين واصطحابُ الأبرار.

والصفة الثالثة: التوكل على الله، وهي من أعظم صفات المؤمنين وأهمها؛ فلا يكون التوكل مقبولاً إلا إذا كان مُنصرفًا إلى الله فقط لا يُشاركه سواه، وهذا الذي دلَّت عليه الآية بتقديمِ الجار والمجرور على الفعل؛ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢)، قال ابن كثير: «أي لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إيّاه، ولا يَلوذون إلا بجَنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرِّف في المُلك وحده لا شريك له، ولا مُعقِّب لحُكمه، وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان».

وهنا أودّ أن أنبِّه على اتجاهين خاطئين في فَهْم التوكل:

أما أحدهم: فيَفهم من التوكل عدمَ الأخذ بالأسباب، وهذا ما نجده في تَراجم بعض الجَهَلة من العباد والمتصوفة، بينما أن سيد المتوكلين رسول الله ﷺ قد أخذ بالأسباب في حياته، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما اتَّخذ من الأسباب في حادثة الهجرة.

وأما ثانيهما: فيذهب إلى أن التوكل لا يُنافي الأخذ بالأسباب، ولكنه يُبالغ في ربْط النتائج بالأسباب بعيدًا عن الله تعالى وقدَره، ويقول بالحتميَّة التي تأبى أو تنسى أن تجعل ذلك من الله وإليه، فقد يأخذ المرء بالأسباب، ولا يصل إلى النتيجة المرجوَّة.

قال سيد قطب: «وليس الاتكال على الله وحده بمانع من اتخاذ الأسباب، فالمؤمن لا يتَّخذ الأسبابَ من باب الإيمان بالله، وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تُنشئ النتائج فيتَّكل عليها، إن الذي ينشئ النتائج كما ينشئ الأسبابَ هو قَدرُ الله، اتخاذ الأسباب عبادة بالطاعة، وتُحقِّق النتيجة قدرٌ من الله مستقل عن السبب لا يَقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرَّر المؤمن من التعبد للأسباب والتعلُّق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدْر طاقته؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها».

والصفة الرابعة: إقامة الصلاة، وهي تمثِّل غذاء الرُّوح الذي إن فَقَده الإنسان فَقدَ توازنَه، ومزَّقته الأمراض والعُقد والقلَق وخسر سعادته الحقيقية يوم القيامة، وكان من الخاسرين.

وإقامتها تقتضي أن تؤدَّى في وقتها بخشوع وحضور قلب.

والحديث عن الصلاة حديث واسع الجوانب، متعدِّد النواحي، لا نستطيع أن نوفِّيه حقَّه في هذه السطور، والذي يجب أن نقرِّره هنا أنه لا بد للمسلم ليكون مؤمنًا حقًّا من إقامتها على الوجه الذي يُرضي الله تعالى.

والصفة الخامسة: هي الإنفاق مما رزَقهم الله؛ فالمال مالُ الله، والإنفاق من ذلك دليل على صدْق الإيمان وطيب العنصر، وهذه الصفة من أهم الصفات التي يَفقدها المجتمع الإسلامي اليوم، ولو تحلَّى بها الموسرون من المسلمين لما كان هناك مجال للأفكار الهدّامة أن تنتشر بين صفوف السُّذج من البائسين والكادحين من أبناء المسلمين، فلنتَّصف بهذه الصفات، ولنستجب لدعوة الله والرسول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٤) ■

«هذا الوقت سوف يمضي» ...

خالد روشة

طبيعة الحياة كَدر؛ يصيب الناس فيها الآلام والمصائب والمشكلات والبلايا يومًا بعد يوم، حتى إنه لا يكاد امرؤ أن تصفو له حياة في غير كدر .

وتختلف انطباعات الناس وردود أفعالهم تجاه ذلك الكدر؛ فمنهم من يقنط، ومنهم من ييأس، ومنهم من ينكسر، ومنهم من يقعد، ومنهم من يعاق، وكذلك منهم من يقوم من كبوته ويتخذ عثرته دافعًا له لخطوة نحو هدفه .

«الضربة التي لا تقسم الظهر تقويه»، حكمة صحيحة، فما من إنسان يستطيع القيام من كبوته والتغلب على كدره، والصبر على محنته إلا ويخرج منها أقوى مما دخل، فقد صارت الآلام لا تؤلمه وصار الظلام لا يخيفه .

يحكى أن أحد الملوك قد سأل حكيمًا أن يعلمه جملة يقرؤها إذا كان حزينًا سُرَّ، وإذا كان مسرورًا لم يبالغ في فرح .. فقال له الحكيم: اكتب: «هذا الوقت سوف يمضي» ...

وصدق الحكيم، فإن أوقات الآلام ما تلبث أن تمضي، وساعات المحن عن قريب تنقضي، والعسر ما يلبث أن يصير يسرًا، والحزن عما قليل يصبح سعادة وحبورًا .

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ (الشرح: ٥-٦)، قال السلف الصالح: لن يغلب عسر يسرين .

ومن قديم قال العرب: «الغَمَراتُ ثم يَنْجَلِنَّه، ثم يَذهَبنَ ولا يَجِنَّه» ويقصدون بها أن الأزمات عما قليل تنجلي، فإذا ما انجلت ذهبت أيامها ولم تعد، فكيف إذا ييأس المؤمن من لحظات الآلام وقد علم أنها لحظات اختبار؟! وكيف ينكسر في مواقف المصائب وقد علم أن ملائكة الرحمن تكتب ردود فعله؟!

مرَّ النبي ﷺ على امرأة وهي تبكي ابنًا لها بجوار قبره، فَقَالَ لَهَا: «اتَّقِي اللَّهَ، وَاصْبِرِي»، فقالت: إليك عني، إنك لم تصب بمصيبتي، ولم تكن تعرفه، فقيل لها إنه رسول الله ﷺ، فذهبت إلى بيته ولم تجد عليه بوابين، فقالت: لم أعرفك، قال: «إِنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى».

إنها قاعدة أخرى جيدة جدا لنا وللجميع عند المصائب والآلام والأحزان، الصبر عند الصدمة الأولى، وفي اللحظة الأولى يتبين الصادق من الدعي .

وكجائزة للصادقين الصابرين: علمنا النبي ﷺ ذاك الدعاء الكريم المبارك إذ قال ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦)، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِه، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا».

قال العلماء: «إنَّ هذا الدعاء لم يُخلف أبدًا مع داعٍ دعاه من قلبه بإخلاص»، وحكى أهل العلم عنه حكايات طويلة، هي في مجموعها جائزة حقيقية لمن صبر عند الصدمة الأولى واسترجع ودعا ربه .

بل إن الصالحين ليُقلبون لحظات الألم والكدر رقيًا وسموًا وروحانية، إنهم يتخذونها لحظات عبودية، فيعلمون أنه لا ينجيهم من مصائبهم إلا الله، وأنه ليس قادر على أن يذهب الآلام إلا الله، وإنه ليس بمقدور أحد أن يمنح القوة أمام البلاء إلا الله سبحانه .

فعندئذ عادوا إليه، ولجأوا إليه، فتراهم سُجَّدًا، رُكعًا، بُكيًا، بين يدي ربهم، يتقربون ويتذللون ويتوبون ويدعون آناء الليل وأطراف النهار .

فتصير لحظات الآلام بالنسبة لهم مطهرة ومنجاة، وتوبة وتنقية وتصفية، حتى إن أحدهم كانت تصيبه المصيبة فيبتسم ويُسر، ويخرج إلى الناس بثوب حسن وعطر حسن، وبسمة تعلو وجهه، شاكرًا حامدًا .

وكيف إذا لا يصبر المؤمن في لحظات البلاء وعنده ساعات السجود، ودقائق يمرغ وجهه لله ذلاً وانكسارًا، وهو يعلم أن ربه الرحيم يراه، فَيُسبِغ عليه رحمته، ويُرخي عليه ستره الجميل، فيرفع درجته، ويُثبت أقدامه، وتَمرُّ عليه لحظات الألم فاقدةً معناها الدنيوي الصعب، مرتديةً معناها الأخروي العذب، كيف لا، وهو بين يدي ربه الرحيم؟ ■

من علماء سوريا

محمَّد نَسيب الرِّفاعيُّ الحَلبيُّ (رحمه الله)

(ت ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م)

هو محمَّد نسيب بن عبد الرزَّاق بن محيي الدِّين الرِّفاعي، من أسرة الرفاعي التي يرتفع نسبها إلى العترة النبوية، وُلد بحلب، وتتلمذ على كبار علمائها وعلماء الشام، أمثال: الشيخ راغب الطباخ، والشيخ مصطفى الزرقاء، والشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ ناصر الدين الألباني.

عمل مراقبًا ومدرسًا في الكليَّة الإسلاميَّة بحلب، ولما كانت سوريا قد صارت تحت الاحتلال الفَرنسيِّ بعد الحرب العالميَّة الأولى، كان لمحمَّد نسيب الرِّفاعيِّ دورٌ كبير في مجاهدة الاحتلال الفَرنسي، وكان يلهب جمهور المتظاهرين بشعره، فقبض عليه وسجن في قلعة راشيل في البقاع الغربي من لبنان، وفي معتقل الميّة والميّة في جنوبي صيدا، وفي هذا المعتقل تعرف على الشيخ مصطفى السباعي، وعلى الأديب عمر أبي النصر.

عندما أفرج عنه عاد إلى عمله، وأسَّس (جمعية الدعوة السلفيَّة للصِّراط المستقيم في حلب(، ثم ترَك سورية إلى لبنان عام ١٩٧٢ م، وقام بالدَّعوة إلى الله ونشر الكتب، مع الشيخ زهير الشاويش، والأستاذ سعيد المعيار.

ثم أقام في الأردن عام ١٩٧٦ م إلى أن تُوفِّي، وضعُف بصره في أواخر عمره.

كان عَفَّ اللِّسان، رحْبَ الصَّدر، بعيدًا عن الخصومة، وكان فصيحَ العبارة، بديع الإلقاء بالشِّعر.

من مؤلَّفاته:

١- التفسير الواضح.

٢- تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير.

٣- نقد قصيدة البردة.

٤- التوصل إلى حقيقة التوسل.

٥-الباقيات الصالحات في شرح الأسماء والصفات، ولم يكمله.

٦- التفسير الواضح على نهج السلف الصالح.

٧- المختارات الوطنية – شعر

٨- ديوان الرفاعي ■

وقفة مع النفس

هل أنت نِصف بار، أم نِصف عاق؟

أرسل لي قريبي يوم الاثنين الماضي رسالة يقول فيها (ماتت أمي اليوم والصلاة في جامع ...).

تأثرت لهذه الرسالة أشد التأثير؛ لعلمي بعظيم حب قريبي لأمه، وحرصه على برها وطاعتها، ذهبت للمقبرة للقيام بالواجب، كانت الجموع كثيرة، كان قريبي مع بعض الرجال في وسط القبر يجهز المكان لأمه الغالية، يضع الحجار الكبيرة، ويرصُّ الأحجار الصغيرة، في مشهد مؤثر تتفطر له القلوب كمداً!

بالأمس القريب كان يدني منها اللحاف الدافئ، ويختار لها الوسادة اللينة، وهو اليوم يتقرب لله بهذا التراب الذي يجمعه لها، وبهذه الأحجار التي يرصها حول قبرها!

هو الآن يُقدِّم لأمه أقصى ما يقدر عليه من صنوف البر والطاعة؛ لأنه يعلم أنها بعد لحظات يسيرة سوف تغيب عن الأنظار، سوف يتسابق الناس في إخفائها عنه، لن يبقى لذكرى هذه الأم إلا قبراً يتساوى مع مئات القبور التي حوله.

لن يرى كما اعتاد وجهاً بساماً وعينًا متلهفة!

لن يسمع دعاءً صادقاً وشوقاً عارماً!

وكل الذي سيسمعه عند زيارته صدى دعائه: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين».

لا أخفيكم أنني شعرت بألم يطعن قلبي حين لمحت الأخ الأصغر لقريبي وهو يبكي، كان يحاول إخفاء دموعه؛ لأن من يبكي في المقبرة لابد أن توجه له السهام، ويناله من التوبيخ وطلب الصبر!

رجعت للحي، وقبل أن أدلف للشارع الموصل للبيت توجهت للمطعم القريب من منزلي، أبو عبد الله صاحب المطعم سألني عن سبب خروجي المبكر من العمل، فأخبرته أين كنت وعن وفاة أم قريبي وذهابنا لدفنها فقال: سبحان الله، أغلق على أولادها اليوم باب للجنة!

اخترقت هذه الكلمات كل حواجز الغفلة واستقرت في قلبي، وجدت لها رغم بساطتها مكاناً خالياً فاستوطنت فيه!

قبل لحظات إذن أغلق باب للجنة كان مشرعاً مفتوحاً ينادي العابرين هو الآن مغلق!

خلقت عبارات (أبو عبد الله) في داخلي عشرات الأسئلة التي سبحت في فضائي ولم تجد لها أجوبة!

يا ترى هل استمعت لنداء هذا الباب الذي ظل يناديني عشرات السنين؟

هل أنا من الذين بروا أمهاتهم؟

هل أنا من الذين قدموا رغبات الأم على ما سواها؟

هل أنا من الذين استشعروا هذه المنة من الله تعالى؟

هل أغضبتها في يوم من الأيام؟ هل نامت في يوم من الأيام وهي ساخطة عليّ؟

هل أنا بار...أم أنا عاق؟

عصفت بي هذه الأسئلة طوال يومي ذاك!

مشكلتنا أننا إما نصف بار أو نصف عاق!

لا نرفض طلبات الأم والأب ولكن نقدم لهم (بعض) الذي يريدون!

لا نقول لهم (أف) ولكن نقول لهم (طيب) (بعدين)!

عندما يطلبون منا شيئاً، لا نسهر على راحتهم، ولكن إذا طلبوا المستشفى أوصلناهم!

لا نسخر من آرائهم ولكن نقدم رأينا على رأيهم!

وهكذا .. أشعرنا أنفسنا أننا بارين بهم، وفي الوقت نفسه أبعدنا الهاجس الذي يطاردنا بأننا عاقين بهم، وهكذا عشنا في منطقة ليست خضراء مُورِقة، وليست كالحةً معتمة، ولن ندرك هذا الخطأ الفادح إلا بكلمات تشبه كلمات (أبو عبد الله): أغلق اليوم باب للجنة لن يفتح بعد ذلك أبداً!

وكما قال الشيخ الطنطاوي: "لقد فقدت أنس قلبي يوم فقدت أمي، فاستمتعوا بجمال الحياة مع أمهاتكم قبل فوات الآوان!

رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا .. رب احفظ لنا أمهاتنا، وارزقنا برهم أحياءً وأمواتا ■



بأقلامهن

كوني كعائشة .... ومن مثل عائشة

سها فتال

قابلتها .. كالزهرة الريانة تزهو بجمال ساحر أخاذ .. جمال يأخذ بالألباب..

جمال لو امتلكت مثله بنات حواء لأعادت للأمة مجدًا غابرًا..

إنه جمال الدين والعلم والأدب..

تفحصت ما تحمل، كتبًا وكراسات. إذن هي طالبة علم!

ولمحته بين الكتب يزهو بلون أخضر، كتاب الله، إذن هي طالبة جنان أيضًا..

قالت بعد أن أمعنت النظر وفهمت مغزى النظرات المندهشة: لم العجب؟! ألأني أحمل كتبًا أم لأني أحمل مصحفًا؟

قلت: الاثنين معًا! فما أراه بين بنات جيلك إما حقائب مكياج متخمة بكل جديد في هذا العالم، وإما الأجهزة الالكترونية الحديثة التي غزت العالم وأخذت بعقول الشباب والبنات، انتشرت بكل أشكالها كالوباء المتفشي في الجسد.

قالت: ولكن ليكن بمعلومك أني أقتني مثل هذه الأجهزة التي تنتقدينها! فغرت الفاه دهشة وأنا أحملق فيها! قالت: لم العجب؟ سأسألك: ألا يمتلك الناس في بيوتهم سكاكين؟ قلت: بلى. قالت: أهم إذن قتلة سفاكون؟ قلت: طبعًا لا!

قالت: كذلك تلك الأجهزة التي أتعبتك، هي وباء إذا أسيء استخدامها، ونعمة كبرى إذا أحسن.

قلت: لا فُضَّ فوك، أنت تملكين حكمة الكبار رغم صغر سنك..

قالت: ولم الاستغراب؟ لم هذه النظرة الظالمة لشبان وشابات الأمة؟ وسأتكلم عن بنات جنسي،

ليكن معلومًا للجميع أننا بنات عائشة وحفيدات أسماء. نسعى للعلياء بكل ما أوتينا من قوة. فينا الأديبات، وفينا العالمات، وفينا قارئات القرآن والحافظات. ونحن قبل هذا وذاك أمهات جيل المستقبل. نحن من سيربي الجيل القادم، وبعد أن نرتقي بأنفسنا عن كل الترهات التي ذكرتها ونحمل كتب العلم بيد، وكتاب الله باليد الأخرى، سنكون كعائشة لتفخر بنا عندما تلقانا، سنربي جيلا كعمر وخالد وصلاح الدين، سنعمل على أن نعيد للأمة تاريخها الناصع.

قد يكون بيننا ممن ذكرت ولكنهم بفضل الله مثل زَبَدِ البحر، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فسيبقى. ونحن سنبقى بإذن الله مادام كتاب الله منهج حياتنا.

قلت: أنت والله مثلٌ لكل بنات عائشة. كنَّ مثل عائشة يا بنات، فبها يحتذى المثل، ومثلها تكون القدوة ■

«الجهاد بالوقت»

من أصعب وأعظم أبواب الجهاد في هذا الزمان

عابدة مؤيد العظم

صرت كلما مر يوم أعجب من سرعة انصرامه؛ إذ إنني لا أكاد أستيقظ حتى يحل المساء، فلما جئت أشتكي من ضيق الوقت وجدت الناس سبقوني إلى مثله، وليس الوقت الذي ضاق وإنما البركة هي التي نزعت منه..

علامات الساعة ظهرت، فيطوي الليل النهار، والنهار الليل، والأسبوع الأسبوع... وأصبحت الواجبات الضرورية أكبر من الوقت، حتى الطفل الصغير يأتي من المدرسة فيأكل ويكتب وظائفه وإذا بالليل قد أقبل فينام ولا يجد وقتاً للعب أو اللهو إلا ساعات معدودة آخر الأسبوع.

ولقد ساهم ازدحام الأعباء وتنوعها في صعوبة استثمار الوقت وتنظيمه، وإن ضيق الأوقات مدَّ مفهوم الجهاد ووسَّعه إلى ضرورة وحتمية "الجهاد بالوقت" لمن أراد النصر.

وإن التضحية بالوقت القليل من أعظم الجهاد؛ ذلك أنَّ الوقت هو الحياة، وهو الإنجاز وهو طريق النجاح، فإذا ضحى به المرء لغيره يكون قد قدم نفسه للآخرين ونسي حظه منها، وهذا ما يفعله المجاهدون في الساحات، ولا يريدون أجرًا ولا شكورًا، سوى القربة إلى الله وإحقاق العدل، فإذا أردتم المساهمة في هذه المعركة المصيرية الطويلة، فعليكم الجهاد بوقتكم الثمين، فالثورة تحتاج للعمل، والتخطيط، والسفر، والإغاثة، والتعريف بالقضية، وجمع الأموال... وكله يتضمن "الجهاد بالوقت"، وأضرب مثلاً:

١- الأطباء الذين تركوا وظائفهم العالية ورواتبهم الكبيرة، ودخلوا سوريا لإجراء العمليات وإسعاف المصابين، والحفاظ على أعضائهم.

٢- ربات البيوت اللاتي أنشأن المطابخ والمشاغل، وصرفن أوقاتهن في خدمة المنكوبين، وتأمين السكن لهم، وجمع الملابس القديمة وتنظيفها وترتيبها.

٣- الهيئات التعلمية التي أخذ العاملون عليها إجازات بلا رواتب، وقاموا بتأمين مدارس وكتب، وجمعوا الصغار المشردين فيها ليفقهوا ويتربوا.

❖ ❖ ❖

هذه القضية؛ وإني لست أبتدع نوعا من الجهاد جديدًا؛ ولكني أفصل في القضية؛ ذلك أن "الجهاد بالوقت" يجمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس:

وأما المال: فحين يتفرغ المرء للثورة يترك التكسب، ويعمل مجانًا في سدِّ ثغرة مهمة جدًا، فكأنه جاهد بماله ودفعه للثورة.

وأما النفس: فإن العمل في أي شأن من شؤون الثورة جهاد، والمرء حين يتفرغ لله فيطبب الناس أو يغيثهم بالطعام... كأنه جاهد بنفسه؛ خاصة وأن مثله أصبح ملاحقًا ومصنفًا مع الإرهابيين، ومعرضًا للقتل شأنه شأن الجندي المجاهد في الساحة!

والله المستعان ■

شـــذرات وقطـــوف

خمس مُثبتات في أزمنة الفتن:

١- القرآن الكريم تلاوة وتدبرًا وعملاً: ﴿**كذلك لنُثبّتَ به فؤادَك**﴾.

٢- قراءة السيرة وقصص الأنبياء: ﴿**وكلاً نقصُّ عليكَ من أنباءِ الرُّسلِ ما نُثبِّتُ به فؤادَك**﴾.

٣- لعمل بالعلم: ﴿**ولو أنَّهم فعلوا ما يُوعظون به لكانَ خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً**﴾.

٤- الدعاء: ﴿**اهدِنا الصِّراطَ المُستقيمَ**﴾، وكان النبي ﷺ يكثر من قول: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

٥- الرفقة الصالحة قوله تعالى: ﴿**واصبرْ نفسَكَ معَ الَّذينَ يدعُونَ ربَّهُم بالغداةِ والعشيِّ يُريدونَ وجهَهُ ولا تعْدُ عيناكَ عنهُم**﴾.

قال بعضهم:

كلما دعتك نفسك للتقاعس عَن عمل صَالح حَدثْ نَفسك: لعلي بهذا العَمل أدخُلُ الجنة اهرب حيث شئت: ﴿**إنّ إلى ربِّكَ الرُّجعى**﴾. واعمَل ما شئتَ فهناك كتابٌ: ﴿**لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها**﴾.

اليوم يقبل منك: ﴿**مثقالُ ذرَّةٍ**﴾.

و غدًا لن يقبل منك: ﴿**مِلءُ الأرضِ ذهباً**﴾.

قال ابن القيم -رحمه الله- في كتاب (الفوائد):

« أصول الخطايا كلها ثلاثة:

١- الكبر وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره.

٢- والحرص وهو الذي أخرج آدم من الجنة.

٣- والحسد وهو الذي جرأ أحدا بني آدم على أخيه.

فمن وُقي شر هذه الثلاثة فقد وُقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد».

قال وَهْبَ بْنَ مُنَبِّهٍ لِرَجُلٍ مِنْ جُلَسَائِهِ: «أَلَا أُعَلِّمُكَ طِبًّا لَا يَتَعَايَا فِيهِ الْأَطِبَّاءُ، وَفِقْهًا لَا يَتَعَايَا فِيهِ الْفُقَهَاءُ، وَحِلْمًا لَا يَتَعَايَا فِيهِ الْحُلَمَاءُ؟ قَالَ: بَلَى يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ. قَالَ: أَمَّا الطِّبُّ الَّذِي لَا يَتَعَايَا فِيهِ الْأَطِبَّاءُ، فَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا مَا سَمَّيْتَ اللهَ عَلَى أَوَّلِهِ، وَحَمِدْتَهُ عَلَى آخِرِهِ، وَأَمَّا الْفِقْهُ الَّذِي لَا يَتَعَايَا فِيهِ الْفُقَهَاءُ، فَإِنْ سُئِلْتَ عَنْ شَيْءٍ عِنْدَكَ فِيهِ عِلْمٌ فَأَخْبِرْ بِعِلْمِكَ، وَإِلَّا فَقُلْ: لَا أَدْرِي، وَأَمَّا الْحِلْمُ الَّذِي لَا يَتَعَايَا فِيهِ الْحُلَمَاءُ، فَأَكْثِرِ الصَّمْتَ، إِلَّا أَنْ تُسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ».

للعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه؛ فمن قام بحق الموقف الأول هُوّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف، ولم يوفّه حقّه شُدّد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿**ومنَ الليلِ فاسجُدْ لهُ وسبِّحْهُ ليلاً طويلاً (٢٦) إنَّ هؤلاءِ يُحبُّونَ العاجلةَ ويذرُونَ وراءَهُم يوماً ثقيلاً**﴾

(الفوائد، لابن القيم)

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا شَدَّادُ بْنَ أَوْسٍ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» أخرجه الطبراني.

«لا تهدر حياتك مع أناس تبرّر لهم كل فعل من أفعالك، من يحبك بصدق سيرى الخير الذي فيك»

د.فوزية الخليفي